ملامح من تاريخ منطقة مدريسة بولاية تيارت
فيما بين القرنين 2 و8هـ/8 و14م

Features of the history of the Medrissa region in the state of Tiaret between the 2nd and 8th centuries AH/8th and 14th AD

د. أحمد بوشامة*، جامعة تيسمسيلت (الجزائر)
bouchamaahamed@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/10/05 تاريخ القبول: 2024/05/28 تاريخ النشر: 2024/06/27

ملخص:

تحاول هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على الإطار المجالي والقبلي الذي شكّل الفضاء الجيو-تاريخي لمنطقة مدريسة بولاية تيارت، وهذا من أجل فهم التطوّرات السياسية والتحوّلات القبلية التي عرفتها هذه المنطقة ابتداءً من النشاط المذهبي والسياسي للحركة الإباضية في سهل السرسو قبل قيام الدولة الرستمية في سنة 144هـ/762/761م، ثم تفاعل هذه المنطقة مع الأوضاع السياسية التي شهدتها مدينة تيهرت وأريافها خلال العهد الرستمي، وبعد ذلك أطوار الصراعات القبلية التي انتهت ببسط قبيلة سُويد الهلالية سيطرتها على منطقة مدريسة ونواحيها في النصف الثاني من القرن 8هـ/14م.

كلمات مفتاحية: مدريسة، تسلونت، قبيلة لواتة، قبيلة بني يدللتن، قبيلة سويد.

*- المؤلف المرسل

Abstract:

This research paper attempts to shed light on the border and tribal framework that shaped the geo-historical space of the Medrissa region in the state of Tiaret, and this is in order to understand the political developments and tribal transformations that this region has known from the sectarian and political activity of the Ibadit movement in the Sersou Plain before the establishment of the Rustamid state in In the year 144 AH/761/762 AD, then this region interacted with the political situation witnessed by the city of Tihart and its countryside during the Rustamid era, and after that the phases of tribal conflicts that ended with the Suwayd al-Hillali tribe extending its control over the Medrisaa region and its environs in the second half of the 8th century AH/14 AD.

Keywords: Medrissa; Taslount; Lwata tribe; Banou yadlaltan tribe; Suwayd tribe.

- **مقدمة**

عرفت المجالات الريفية المحيطة بمدينة تيهرت في العصر الوسيط وجودا مكثّفا للجماعات القبلية التي قامت بأدوار محورية في التحوّلات السياسية والحركة القبلية التي جعلت من هذه الجهات مركز ثقل مهمٍّ له امتداداته –تأثّرا وتأثيرا- في التاريخ العام للمغرب الأوسط خلال هذه الفترة. كما كان لهذه الجماعات القبلية أيضا بصمتها في الجغرافية التاريخية للمجالات التي توزّعت فيها، وهذا ما يجعل موروثها الطوبونيمي الذي نقلت المصادر الوسيطية جزءا منه، من المنطلقات الأساسية في فهم تشكّل الجغرافية الحالية لهذه المناطق.

ولذلك مع تنامي التوجّه البحثي الذي يسعى لدراسة تاريخ المناطق المحدّدة إداريا أو جغرافيا في الحاضر، تُمثّل منطقة مدريسة بولاية تيارت نموذجا يُمكن الانطلاق منه لفهم موقعيتها بالنسبة للتاريخ السياسي والقبلي لمنطقة تيهرت فيما بين القرنين 2 و8هـ/8 و14م، ثم وضع تصوّر لأهمّ المحطات التاريخية التي مرّت على المجال المدريسي خلال هذه الحقبة.

1-موقع منطقة مدريسة:

تشكّل مدريسة إحدى البلديات التابعة لولاية تيارت، تبعد عن مقرّ الولاية جنوبا بحوالي 53,5كم، وتُقدّر مساحتها بِ 256كم^2، تحدّها بلدية توسنينة شمالا، وبلدية فرندة من الشمال الغربي، وبلدية الشحيمة من الغرب والجنوب الغربي، وبلدية عين كرمس شرقا، وبلدية سيدي عبد الرحمن من الجنوب الشرقي[1] (انظر: الملحق رقم: 1).

الملحق رقم 1: حدود بلدية مدريسة

من خلال الصور الجوية -Google Maps-

2-أسماء منطقة مدريسة في العصر الوسيط:

قبل الحديث عن الأسماء التي أُطلقت على منطقة مدريسة أو شمِلَها مدلولها اللغوي في العصر الوسيط، لا بدّ من التنبيه هنا؛ أن هذه الأسماء قد لا تُعبّر عن كل ما أُطلق على هذه المنطقة أو أماكن محدّدة منها في هذه الفترة، ولذلك يبقى البحث في هذا الموضوع قابلا لإضافة أسماء أخرى، وهو ما يسمح في تعميق معرفتنا لتاريخ هذه المنطقة.

[1] مرقومة منصور، مدريسة: الماضي والحاضر، بحث في الأنثروبولوجيا التاريخية، منشورات دار الأدب، وهران-الجزائر، 2005م، ص19.

1-تسلونت: أشار ابن الصغير (ت. بعد 296هـ/919م)[1] إلى أنها اسم المنطقة التي تخرج منها منابع وادي مينة في جنوب مدينة تيهرت. وهذه المنابع يمتدّ مجالها الجغرافي بين نواحي مدينة مدريسة والجزء الجنوبي الغربي من جبال فرندة (انظر الملحق رقم:2)[2]، ولذلك فلا شكّ أن منطقة مدريسة أو جزءا منها كان يدخل في مسمّى تسلونت خلال هذه الفترة.

2-أعالي مينة: جاء ذكرها عند يحي بن خلدون (ت. 780هـ/1378م)[3]، وهي المنطقة التي تمتدّ من منابع هذا الوادي جنوبا إلى النواحي الشمالية لمنطقة ملاكو[4]، وبهذا يكون مصطلح "أعالي منية" من الأسماء التي تندرج منطقة مدريسة ضمن مدلوله الجغرافي.

-المدريسة: ورد هذا الاسم في بعض نسخ كتاب "بغية الرواد"[5]؛ وهو الذي ما زالت منطقة مدريسة معروفة به في عصرنا الحاضر.

وهذا مع الإشارة، أن تاريخ منطقة مدريسة فيما بين القرنين 2 و8هـ/8 و14م مرتبط في الكثير من الأحيان بالأحداث التاريخية التي تتعلّق ببعض القبائل التي امتدّت مجالاتها الجغرافية إلى أرضها، مثل قبيلة لواتة التي كانت مواطنها بجانب وادي مينة بين نواحي مدينة تيهرت شمالا ومنطقة تسلونت جنوبا[6]،

---

[1] ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميّين، تحقيق: محمد ناصر وإبراهيم بحاز، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986م، ص74.

[2] ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهاس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت – لبنان، 1981م، ج4، ص57؛ المدني أحمد توفيق، جغرافية القطر الجزائري للناشئة الإسلامية، المطبعة العربية، الجزائر، 1948م، ص22؛ بوشامة أحمد، الجغرافية المذهبية للمغرب الأوسط من القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 6هـ/12م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل. م. د.) في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ- جامعة غرداية، إشراف: طاهر بن علي، 2021-2022م، ص108؛ Niox (C.), Algérie: Géographie physique, Imprimerie L. Baudoin, Paris, 1884, p.49; Bernard (M.), Les Djedar de la Haute-Mina, Revue Africaine, N. 1, 1856, p.50.

[3] ابن خلدون (أبو زكرياء يحي بن أبي بكر ت. 780هـ/1378م)، بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م، ج2، ص307.

[4] ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ج، ص307؛ Bernard, op. cit., p.50.

[5] جاء في نسختين مخطوطتين منه بلفظ "المديريسة". انظر: ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ج1، ص ص260، 266.

[6] ابن الصغير، المصدر السابق، ص74؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص156.

أو بسهل السرسو الذي تقع منطقة مدريسة في جنوبه الغربي (انظر الملحق رقم:2)[1]، ولذلك من الضروري على الباحث توظيف هذه الأحداث من أجل التأريخ للمجال المدريسي خلال الفترة المدروسة.

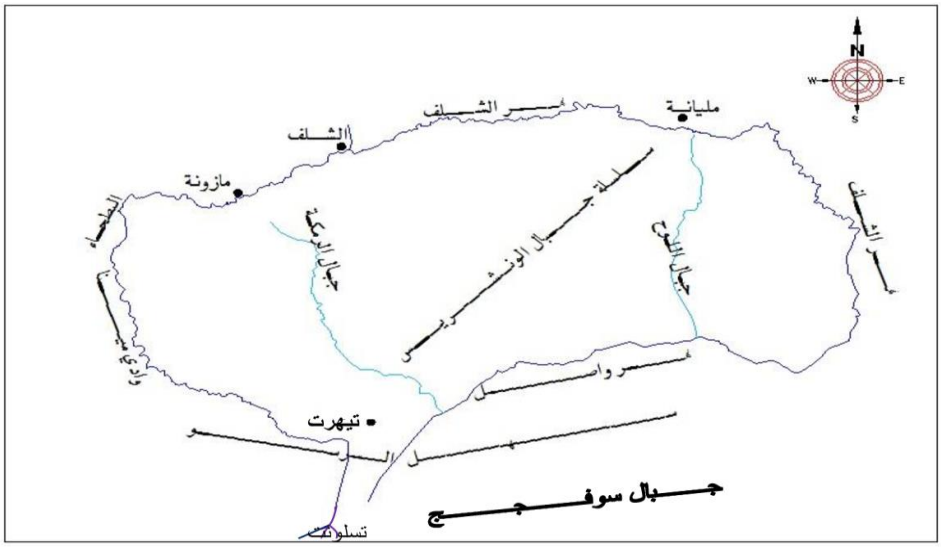

الملحق رقم 2: المجالات الجغرافية المحيطة بمنطقة تسلونت

(بوشامة، المرجع السابق، ص239 بتصرّف)

3-التطوّرات المذهبية والسياسية في منطقة مدريسة قبل قيام الدولة الرستمية:

وصلت الفتوحات الإسلامية للجماعات القبلية في منطقة تيهرت بعد الحملة العسكرية الثانية التي قادها عقبة بن نافع الفهري لتوسيع نطاق الحكم الإسلامي في بلاد المغرب بين سنتي 63 و64هـ/683 و684م[2]. ثم بعد ذلك بدأت الأوضاع المذهبية والسياسية في منطقة مدريسة تعرف تطوّرات مهمة في النصف الثاني من القرن 2هـ/8م، وذلك من خلال انتشار عقائد الإباضية في قبائل سهل السرسو الغربي[3]، وقد كانت قبيلة لواتة ممّن اعتنقت هذا التوجّه المذهبي[4].

---

[1] ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ج1، ص260.

[2] الرقيق (إبراهيم بن القاسم القيرواني ت. 420هـ/1029م)، تاريخ أفريقية والمغرب، تقديم وتحقيق وتعليق: محمّد زينهم محمّد عزب، دار الفرجاني، القاهرة-مصر، 1994م، ص43.

[3] ابن خلدون، العبر، ج6، ص158.

[4] نفسه، ج6، ص158.

وبعد انهزم إباضية المغرب الأدنى أمام والي مصر محمد بن الأشعث الخزاعي (141-144هـ/759-761م) في معركة تورغا بالنواحي الشرقية لمدينة طرابلس في بداية سنة 144هـ/761م، ومقتل إمامهم أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري[1]، هرب عبد الرحمن بن رستم الفارسي من مدينة القيروان، ولجأ إلى جبل سوفجج[2] الذي يقع في نواحي الشمال الشرقي لمنطقة مدريسة على بعد حوالي 35كم (انظر الملحق رقم: 2).

وأثناء فترة مكوثه في هذا الجبل كانت قبيلة لواتة من أوائل قبائل سهل السرسو الغربي التي الْتفّت حوله مع عدد من القبائل الإباضية بالمغرب الأوسط، مثل لماية التي نزل عبد الرحمن عندها، ورجّالة، ونفزاوة[3]، وبعض الجماعات الإباضية التي قدمت إليه من المغرب الأدنى، وسعوا في إعادة إحياء الإمامة الإباضية[4]. ثم بعد حصار محمد بن الأشعث لهم في جبل سوفجج، وفشله في القضاء على حركتهم[5]، واصل الإباضية تجسيد مشروعهم السياسي، وانتقلوا إلى جبل جزول[6].

4-منطقة تسلونت خلال العهد الرستمي:

وفي المنطقة المعروفة اليوم بتاقدمت التي تقع غرب مدينة تيارت على بعد حوالي 8كم بايع الإباضية عبد الرحمن بن رستم بالإمامة، وأسّسوا مدينة تهرت الجديدة على الراجّح في النصف الثاني من سنة 144هـ/761/762م[7]. وبذلك أضحت منطقة تسلونت تابعة للدولة الرستمية، وتشكّل جزءا من أرباض

---

[1] أبو زكرياء (يحي بن أبي بكر ت. بعد 474هـ/1081م)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكرياء، حقّقه ووضع حواشيه: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط3، الجزائر، 1984م، ص ص66-69؛ النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت. 733هـ/1333م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، حقّق الجزء 24: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2004م، ص40.

[2] أبو زكرياء، المصدر السابق، ص71؛ دبوز محمّد علي، تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاوالت الثقافية، د.م، 2010م، ج3، ص ص236-237.

[3] ابن خلدون، العبر، ج6، ص ص147، 159.

[4] أبو زكرياء، المصدر السابق، ص71؛ Prevost (V.), Abd al-Rahman ibn Rustum al-Farisi: une tentative de biographie du premier imam de Tahart, Der Islam, N. 86, 2011, p.52.

[5] أبو زكرياء، المصدر السابق، ص ص71-72.

[6] ابن خلدون، العبر، ج6، ص159.

[7] البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ت. 487هـ/1094م)، المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2003م، ج2، ص ص249-250؛ مؤلّف مجهول (ت. بعد 712هـ/1312م)، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، الرباط-المغرب،

عاصمتها السياسية. وقد تميزت هذه المنطقة بموقع جغرافي متميّز، جعلها تتمتّع بمكانة اقتصادية مهمة خلال العهد الرستمي، وذلك بسبب خروج منابع وادي مينة منها، مما جعل سكان هذه النواحي ينصبون أرحاءهم[1] بجانب الفروع المائية لهذا الوادي لطحن الحبوب وغيرها[2].

كما أهّلها موقعها الجغرافي لأن تكون واسطة بين القبائل التابعة للرستميين من التي كانت في سهل السرسو شمال جبال الناظور وجبال فرندة، والقبائل الصحراوية الأخرى التي كانت تصل مجالات ضعنها إلى جنوب هاتين السلسلتين الجبليتين[3]، وهذا ما جعل منطقة تسلونت ونواحيها ملجأ لبعض الأئمة الرستميين للاحتماء بالقبائل الإباضية المحيطة بها، وذلك عند حدوث اضطرابات سياسية في مدينة تيهرت.

فعندما حدثت فتنة بين العرب والجند ضدّ العجم وقبيلة نفوسة والأسرة الرستمية في مدينة تيهرت بعد اتّهام الإمام الرستمي أبي بكر بن أفلح بقتل صهره محمد بن عرفة الذي كان من الشخصيات النافذة في هذه المدينة، قامت قبيلة لواتة بنقل أبي اليقظان محمد بن أفلح إلى منطقة تسلونت[4]، وبعد ذلك استمرت هذه الفتنة سبع سنوات بين النصف الثاني من العقد السادس والسنوات الأولى من العقد الذي يليه في القرن 3هـ/9م، اعتزل فيها أبو بكر الحكم، وقدّمت قبيلة لواتة وجماعات من أهل مدينة تيهرت أبا اليقظان لتولّي الإمامة، فتمكّن هذا الأخير من كسب تأييد الجماعات القبلية المحيطة بمدينة تيهرت، وباقي المناطق الأخرى في بلاد المغرب حتى لم يبق لخصومه في العاصمة الرستمية إلا بعض الجماعات المناصرة

2005م، ص ص138؛ النويري، المصدر السابق، ج24، ص ص38-43؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص ص147، 159.

[1] تعرف أيضا بالمطاحن؛ وهي عبارة عن بيت يُوجد فيها حَجَر الطحن، تُقام عادة بجانب الجداول المائية من أجل استغلال جريان المياه في تدوير هذا الحجر. انظر: بوشامة أحمد، جوانب من المنشآت المعمارية في مدينة تاهرت خلال الحكم الرستمي (144-296هـ/761-909م) -قراءة في أنواعها ووظائفها-، أعمال المؤتمر الافتراضي الدولي الأول الموسوم بـ"العلوم الإنسانية والاجتماعية: قضايا ودراسات. مناهج وآفاق. نحو رؤية جديدة في قراءة الماضي واستشراف المستقبل، جامعة ورقلة ومركز رؤيا جديدة، 16-19 ماي 2021م، ص ص423-424.

[2] ابن الصغير، المصدر السابق، ص74.

[3] بوشامة، المرجع السابق، ص110.

[4] ابن الصغير، المصدر السابق، ص ص67-74؛ الباروني سليمان باشا، الأزهار الرياضية في أئمّة وملوك الأباضية، مراجعة: محمّد علي الصليبي، دار الحكمة، لندن-بريطانيا، 2005م، ص ص280-289.

لهم، فقام الإباضية الموالين لأبي اليقظان بمبايعته إماما للدولة الرستمية، وساندوه في الهجوم على العاصمة الرستمية إلى أن تمّ الصلح بينه وبين خصومه، واستطاع دخولها، وبسط سيطرته عليها[1].

والظاهر أن أبا اليقظان اتّخذ بيتا في منطقة تسلونت خلال هذه الفتنة، ثم بعد رجوعه إلى مدينة تيهرت بقي له هذا البيت خلال فترة حكمه التي دامت إلى سنة 281هـ/894م[2]، فكان يذهب إليه أحيانا ليتفقّد ما فيه من أملاكه وعبيده[3].

ولمّا طَرد أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان (281-294هـ/894-907م) فارسين من خاصته، هما محمد بن رباح ومحمد بن حمّاد، بعد أن وقع خلاف بينهما، حدث تمرّد في مدينة تيهرت قادته جماعة من المناصرين لهما، فقام أبو حاتم بالانتقال مع عشيرته ووجُوه أهل تيهرت إلى حصن نماليت[4] في النواحي الشمالية لمنطقة تسلونت، وبهذا وجد أبو حاتم نفسه مُحاطا بالقبائل الإباضية، خاصة قبيلة لواتة التي كانت من أهمّ حلفائه، وبعدها نجح في استمالة القبائل الصحراوية، وشرع في الهجوم على مدينة تيهرت[5]. وعلى الرغم من تدخّل عمّه يعقوب بن أفلح في هذه الفتنة، وتملّكه لهذه المدينة فيما بين سنتي 282 و286هـ/895 و899م[6]، إلا أن أبا حاتم تمكّن في الأخير كسب ثقة أهل تيهرت، واسترجاع حكمه عليهم[7].

---

[1] ابن الصغير، المصدر السابق، ص ص74-76؛ الباروني، المرجع السابق، ص ص289-292.

[2] ابن الصغير، المصدر السابق، ص89؛ ابن عذاري المراكشي (ت. بعد 712هـ/1312م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س.كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط2، بيروت-لبنان، 1973م، ج1، ص197.

[3] ابن الصغير، المصدر السابق، ص88؛ الباروني، المرجع السابق، ص302.

[4] جاء بهذا اللفظ في النسخة التي حقّقها الأستاذان محمد ناصر وإبراهيم بحاز من كتاب ابن الصغير، ولكن في النسخة التي اعتمدها الباروني من هذا الكتاب، جاء "تاليت". وأما ابن عذاري فيسميه حصن لواتة. انظر: ابن الصغير، المصدر السابق، ص93؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص197؛ الباروني، المرجع السابق، ص321.

[5] ابن الصغير، المصدر السابق، ص ص92-95.

[6] ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص197.

[7] ابن الصغير، المصدر السابق، ص ص97-101.

5-الحركة القبلية في منطقة مدريسة بين القرنين 4 و8هـ/10 و14م

دخلت الدولة الرستمية في أواخر عهدها مرحلة من الاضطرابات السياسية، كان من أهم أسبابها تنافس الأسرة الرستمية على الحكم[1]، ولهذا عندما قدم إليها أبو عبد الله الداعي بجيشه في سنة 296هـ/909م، وجد دولة ضعيفة لا تقوى على مواجهته، فقام بقتل آخر حكّامها يقظان بن أبي اليقظان (294-296هـ/907-909م) وبنيه، وعيّن على منطقة تيهرت أبا حميد دواسا بن صولات اللهيصي الكتامي (296-299هـ/909-912م)، وإبراهيم بن محمد اليماني الهواري[2]. إلّا أن الأوضاع السياسية في منطقة تيهرت لم تعرف استقرارا سياسيا لصالح الفاطميين، وذلك بسبب تعدّد الثورات التي قادها أهل هذه المنطقة عليهم[3].

وقد كان من هذه التمردات؛ انفصال والي إقليم تيهرت حميد بن يصل المكناسي وقبيلة لواتة عن السلطة الفاطمية في شهر صفر من سنة 336هـ/سبتمبر 947م، وهذا ما جعل المنصور الفاطمي (334-341هـ/946-953م) الذي كان موجودا في مدينة المسيلة خلال هذه الفترة يطارد في أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري، يُقرّر التوجّه إلى مدينة تيهرت لاسترجاع نفوذه على منطقتها، وعندما وصل إليها بجيشه وجد حميد بن يصل قد هرب عند الأمويين في بلاد الأندلس، فحاول مطاردة قبيلة لواتة، ولكنه عندما وصل إلى المجالات التي تمتدّ إليها مواطنها في نواحي الجنوب الغربي لسهل السرسو في 11 ربيع الآخر من هذه السنة/30 أكتوبر 947م، كانت قبيلة لواتة قد هربت جنوبا، فلم يتمكّن من اللحاق بها، غير أنه

---

[1] عن الأوضاع السياسية في أواخر العهد الرستمي. انظر: أبو زكرياء، المصدر السابق، ص169؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص197؛ بحاز إبراهيم، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ط4، الجزائر، 2015م، ص ص176-187.

[2] أبو زكرياء، المصدر السابق، ص169؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص197؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص191.

[3] للاطّلاع أكثر على هذه التمرّدات. انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص ص160، 197-198؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص ص51، 57؛ الداعي إدريس (عماد الدين بن الحسن القرشي ت. 872هـ/1467م)، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تحقيق: محمّد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1985م، ص ص166، 179، 226؛ Allaoua (A.), Les Fatimides et le Maghreb central : littoralisation de la dynastie et modes de contrôle des territoires, Revue des Mondes Musulmans et de la Méditerranée, N. 139, 2016, pp.117-119.

اغتنم فرصة وجوده في هذه المنطقة، فزار آثار لجدار في منطقة فرندة، ثم غادرها متوجّها إلى مدينة المسيلة[1].

وبعد ذلك رجعت قبيلة لواتة إلى مناطقها الأولى بالقرب من وادي مينة بسهل السرسو، ثم حدث نزاع بينها وبين قبيلة بني وجديجن الزناتية التي كانت تتوزّع في تلول منداس شمال مدينة تيهرت، فقام زعيم قبيلة بني وجديجن المعروف بعنان بالتحالف مع يعلى بن محمّد زعيم قبيلة بني يفرن، وغزّانة زعيم قبيلة مطماطة التي كانت في الونشريس الغربي، وكلمام بن حيّان (أو حيّاني) زعيم قبيلة مغيلة، وقاموا بطرد قبيلة لواتة من مواطنها قبل سنة 347هـ/958م، ووسّع كل من بني وجديجن ومطماطة مجالاتهم في سهل السرسو الغربي[2].

وأما قبيلة لواتة فبعد طردها لجأت إلى جبل كريكرة (أو جريجرة) بالقرب من وادي سوف اسلم (سوسلم حاليا) في جنوب سهل السرسو[3]، وبعدها تعرّضت إلى القتل والسلب من قبل إحدى فروع قبيلة مغراوة التي كانت تستوطن هذا الجبل، فانتقلت لواتة إلى جبل يعود[4] في الجهات الشرقية لوادي مينة، وجبل دراك (دراف حاليًا) في نواحي مدينة المدية[5].

ثم بعد هذه الفترة عرفت منطقة مدريسة عنصرا قبليا جديدا، تمثّل في قبائل بني توجين التي تنحدر من قبائل بني يادين الوسيانية الزناتية، فقد كانت مواطنهم الأولى عندما دخلوا إلى سهل السرسو بالقرب من نهر واصل (انظر الملحق رقم:2)[6]، ثم لمّا انحازوا إلى الأمير الزيري باديس بن المنصور (386-406هـ/996-1016م) في المعركة التي انتصر فيها على عمّه حماد بن بلكين بالقرب من هذا النهر في جمادي الأولى من

---

[1] الداعي إدريس، المصدر السابق، ص ص463-467.

[2] ابن خلدون، العبر، ج6، ص154، ج7، ص ص67-68.

[3] ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ج2، ص187؛ بوشامة، الجغرافية المذهبية، ص164، هامش رقم: 4.

[4] جاء بهذا الشكل في الكتاب المطبوع من تاريخ العبر، ولكن يبدو أنه مُصحّف من كلمة يغود أو إيغود، لأنّ يحي بن خلدون أشار إلى موضع باسم "يغود" يقع بالقرب من جبال الونشريس، كما توجد حاليًا هضبة تحمل اسم "إيغود" تقع في منطقة خميستي ولاية تيسمسيلت بجنوب جبال الونشريس. انظر: ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ج2، ص75؛ بوشامة، الجغرافية المذهبية، ص164، هامش رقم:6.

[5] ابن خلدون، العبر، ج6، ص154، ج7، ص ص35، 68.

[6] نفسه، ج7، ص ص79، 205.

سنة 405هـ/ أكتوبر 1014م، كافأهم المنصور بأن أقرّهم على حيازة غنائم هذه المعركة، وسمح لهم في امتلاك الأراضي، مقابل إبقاء تبعيتهم له[1].

فاستغلّ التوجينيون هذه الفرصة وأزاحوا قبيلتي مطماطة وبني وجديجن من سهل السرسو الغربي، وسيطروا على كامل هذا السهل في القرن 5هـ/11م[2]، ثم شكّلوا إمارة محلّية امتدّ أقصى اتساع لها بين نواحي بلاد الزاب شرقا إلى قلعة سعيدة غربا، ومن جهات منطقة المدية وجبال الونشريس شمالا إلى جبال بني راشد (عمّور حاليا) جنوبا[3].

وينحر من هذه القبيلة فرع بني يدللتن الذين فيما يبدو كانت منطقة مدريسة تندرج ضمن مواطنهم في الجنوب الغربي لسهل السرسو[4]. وقد اشتهر من زعمائهم في النصف الأول للقرن 6هـ/12م؛ سلامة بن علي بن نصر الذي "اختطّ القلعة بتاوغزوت[5] المنسوبة إليه وإلى بنيه، وكانت من قبل رباطا لبعض المنقطعين من عرب سويد"[6].

---

[1] النويري، المصدر السابق، ج24، ص ص108-109؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص209، ج7، ص206.

[2] ابن خلدون، العبر، ج6، ص154؛ بوشامة، الجغرافية المذهبية، ص152.

[3] ابن خلدون، العبر، ج6، ص69، ج7، ص210. وللاطّلاع أكثر على تاريخ هذه الإمارة. انظر: بورملة عربية، إمارة بني توجين بالونشريس خلال القرنين (7-8هـ/13-14م) من خلال كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية-جامعة وهران، إشراف: محمد بن معمر، 2009-2010م، ص ص36-96؛ دحدوح عبد القادر، إمارة بني توجين بمنطقة الونشريس بين مواجهة الصغار وتحدي الكبار، أبحاث اليومين الدراسيين حول: إسهامات منطقة الونشريس في المقاومة الجزائرية عبر التاريخ وشواهدها الأثرية، منشورات دار الثقافة لولاية تيسمسيلت، 2012م، ص ص38-41.

[4] ابن خلدون، العبر، ج7، ص ص148، 217.

[5] تقع في جنوب مدينة فرندة على بعد حوالي 5كم، وفي الشمال الغربي لمدينة مدريسة على بعد حوالي 23كم. وهي التي مكث فيها عبد الرحمن بن خلدون أربع سنوات، وكتب فيها مقدمة كتابه العبر الشهيرة، قال ابن خلدون عن هذه القلعة: "نزلت بقلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف، وسكنت منها بقصر أبي بكر بن عريف الّذي اختطّه بها، وكان من أحفل المساكن، وأوثقها". انظر: ابن خلدون عبد الرحمن، رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلّق على حواشيها: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2004م، ص188.

[6] ابن خلدون، العبر، ج7، ص216.

ولكن مع بداية القرن 8هـ/14م بدأت بعض القبائل الهلالية تحاول مزاحمة بني يدللتن والسيطرة على بلادهم، ففي سنة 706هـ/1306م استغلت فروع من سويد بن مالك بن زغبة، وبني يعقوب بن عامر بن زغبة[1] حصار المرينيين الطويل لمدينة تلمسان (698-706هـ/1298-1306م) وتملّكوا سهل السرسو، ثم بعد فشل هذا الحصار في إسقاط السلطة الزيانية، قام السلطان الزياني أبو زيان محمد بن أبي سعيد (703-707هـ/1303-1308م) بقيادة حملة عسكرية لاسترجاع نفوذه على الجهات الغربية للمغرب الأوسط، وكان من هذه المناطق التي توجّه إليها؛ سهل السرسو، فلمّا علمت القبائل الهلالية بقدومه هربوا منه، غير أن السلطان الزياني تمكن من تقفي أثرهم، وإلحاق الهزيمة بهم[2].

ثم في منتصف القرن 7هـ/13م كانت مواطن قبيلة سويد تحاذي بلاد بني يدللتن جنوب منطقتي مدريسة وتاوغزوت[3]، فأعلن زعيمهم ونزمار بن عريف مع بعض القبائل الأخرى موالاتهم للمرينيين، وهذا ما جعل السلطان الزياني أبي ثابت يوسف بن أبي تاشفين (749-753هـ/1348-1352م) يأتي إليهم بجيشه من أجل إعادة إخضاعهم، فقدم إلى منطقة مدريسة في أول شهر ربيع الأول من سنة 751هـ/ماي 1350م، ولكنّ ونزمار بن عريف مع الجماعات الهلالية التابعة له أسرعوا في الهرب منه، فعدَل أبو ثابت عن مواصلة ملاحقتهم، وتوجّه إلى المدية من أجل إخضاع المتمردين عليه في تلك النواحي[4].

ولما أسقط السلطان أبو عنان فارس بن أبي الحسن (749-759هـ/1348-1358م) الدولة الزيانية، واستولّى على مدينة تلمسان في سنة 753هـ/1352م[5]، "رعى لسويد ذمة الانقطاع إليه، فرفع وزمار (كذا) بن عريف على سائر رؤساء البدو من زغبة، وأقطعه السرسو، وقلعة ابن سلامة، وكثيرا من بلاد توجين"[6]. فتملّك ونزمار بن عريف بلاد بني يدللتن، وستوطن هو وبنوه من بعده في قلعة بني سلامة[7]، ثم بعد إحياء الدولة الزيانية على يد أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م)، قام هذا السلطان بتولية

---

[1] ابن خلدون، العبر، ج6، ص ص59، 68.

[2] ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ج1، ص234؛ ابن خلدون، العبر، ج7، ص130.

[3] ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ج1، ص260؛ ابن خلدون، العبر، ج7، ص217.

[4] ابن خلدون يحيى، المصدر السابق، ج1، ص ص260-261.

[5] نفسه، ج1، ص ص263-265؛ التنسي (محمد بن عبد الله ت. 899هـ/1492م)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حقّقه وعلّق عليه: محمود آغا بوعياد، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2011م، ص ص154-156.

[6] ابن خلدون، العبر، ج6، ص ص63-64.

[7] ابن خلدون، الرحلة، ص188.

سليمان بن سعد بن سلامة على قلعة بني سلامة، وقبيلته بني يدللتن، إلا أن ازدياد نفوذ القبائل الهلالية بالمغرب الأوسط، جعل السلطان أبي حمو يُعيد قلعة بني سلامة وبلاد بني يدللتن وما اتصل بها من سهل السرسو إلى أولاد عريف زعماء قبيلة سويد، وبذلك بقيت منطقة مدريسة ونواحيها تابعة لهم إلى أواخر القرن 8هـ/14م[1].

-الخاتمة:

يتّضح من خلال ما سبق ذكره، أن منطقة مدريسة كانت معروفة ببعض الأسماء التي أُطلقت عليها أو اندرجت ضمن مدلولها اللغوي، مثل "تسلونت" في القرن 3هـ/9م، و"أعالي مينة" و"المدريسة" في القرن 8هـ/14م. وهذه المجالات الجغرافية شهدت استقرار العديد من الجماعات القبلية، من أهمها قبيلة لواتة، ثم بني يدللتن التوجينية، وسويد الهلالية، وقد عرفت هذه القبائل العديد من الصراعات مع جيرانها من القبائل المجاورة لها أو مع السلطة السياسية المعاصرة لها، وهذا ما ساهم أحيانا في ظهور تحولات سياسية وقبلية كان لها الأثر الأكبر في تشكيل الحركية التاريخية لهذه المنطقة.

وهذا مع الإشارة إلى أن المصادر الوسيطة أشارت إلى بعض الأماكن التي تقع في نواحي الجنوب الغربي لسهل السرسو، ولكنّنا لم نتمكن من تحديد مواقعها بدقة، مثل: إسكدال[2]، وكدية العابد[3]، وتغالين[4]، ولذلك يبقى البحث الطوبونيمي كفيلا بفتح أفاقا جديدة للتعمّق أكثر في تاريخ منطقة مدريسة خلال الفترة الوسيطة، وذلك من خلال التحديد الجغرافي لهذه المناطق، فمن الممكن أن تكون أيٌّ واحدة منها تقع في منطقة مدريسة، أو في التعرّف على طوبونيميات أخرى تمتدّ جذورها إلى هذه الفترة، وهذا ما يسمح بإضافة معطيات جديدة يمكن أن توسّع المعرفة التاريخية لهذه المنطقة.

-قائمة المصادر والمراجع:

-المصادر:

1-(الداعي) إدريس (عماد الدين بن الحسن القرشي ت. 872هـ/1467م)، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تحقيق: محمّد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1985م.

[1] ابن خلدون، العبر، ج6، ص64، ج7، ص207.

[2] ابن الصغير، المصدر السابق، ص73.

[3] ابن خلدون، العبر، ج7، ص68.

[4] ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ج2، ص242.

2-البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ت. 487هـ/1094م)، المسالك والممالك، حقّقه ووضع حواشيه: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2003م.
3-التنسي (محمد بن عبد الله ت. 899هـ/1492م)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حقّقه وعلّق عليه: محمود آغا بوعياد، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2011م.
4-ابن خلدون (أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر ت. 780هـ/1378م)، بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م.
5-ابن خلدون (عبد الرحمن ت.808هـ/1406م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهاس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت – لبنان، 1981م.
6-ـــــــــــــــــــــــــ، رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلّق على حواشيها: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2004م.
7-الرقيق (إبراهيم بن القاسم القيرواني ت. 420هـ/1029م)، تاريخ أفريقية والمغرب، تقديم وتحقيق وتعليق: محمّد زينهم محمّد عزب، دار الفرجاني، القاهرة-مصر، 1994م.
8-أبو زكرياء (يحي بن أبي بكر الوارجلاني ت. بعد 474هـ/1081م)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكرياء، حقّقه ووضع حواشيه: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط3، الجزائر، 1984م.
9-ابن الصغير (ت. بعد 296هـ/919م)، أخبار الأئمة الرستميّين، تحقيق: محمّد ناصر وإبراهيم بحاز، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986م.
10-ابن عذاري المراكشي (ت. بعد 712هـ/1312م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س.كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط2، بيروت-لبنان، 1973م.
11-مؤلّف مجهول (ت. بعد 712هـ/1312م)، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، الرباط-المغرب، 2005م.
12-النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت. 733هـ/1333م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، حقّق الجزء 24: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2004م.

-الدراسات باللغة العربية:

13-الباروني سليمان باشا، الأزهار الرياضية في أئمّة وملوك الأباضية، مراجعة: محمّد علي الصليبي، دار الحكمة، لندن-بريطانيا، 2005م.

14-بحاز إبراهيم، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ط4، الجزائر، 2015م.

15-بورملة عربية، إمارة بني توجين بالونشريس خلال القرنين (7-8هـ/13-14م) من خلال كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية-جامعة وهران، إشراف: محمد بن معمر، 2009-2010م.

16-بوشامة أحمد، الجغرافية المذهبية للمغرب الأوسط من القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 6هـ/12م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل. م. د.) في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ- جامعة غرداية، إشراف: طاهر بن علي، 2021-2022م.

17-ـــــــــــــ، جوانب من المنشآت المعمارية في مدينة تاهرت خلال الحكم الرستمي (144-296هـ/761-909م)-قراءة في أنواعها ووظائفها-، أعمال المؤتمر الافتراضي الدولي الأول الموسوم بـ"العلوم الإنسانية والاجتماعية: قضايا ودراسات. مناهج وآفاق. نحو رؤية جديدة في قراءة الماضي واستشراف المستقبل، جامعة ورقلة ومركز رؤيا جديدة، 16-19 ماي 2021م.

18-دحدوح عبد القادر، إمارة بني توجين بمنطقة الونشريس بين مواجهة الصغار وتحدي الكبار، أبحاث اليومين الدراسيين حول: إسهامات منطقة الونشريس في المقاومة الجزائرية عبر التاريخ وشواهدها الأثرية، منشورات دار الثقافة لولاية تيسمسيلت، 2012م.

19-المدني أحمد توفيق، جغرافية القطر الجزائري للناشئة الإسلامية، المطبعة العربية، الجزائر، 1948م.

20-مرقومة منصور، مدريسة: الماضي والحاضر، بحث في الأنثروبولوجيا التاريخية، منشورات دار الأدب، وهران-الجزائر، 2005م.

-الدراسات باللغة الأجنبية:

21-Allaoua (A.), Les Fatimides et le Maghreb central : littoralisation de la dynastie et modes de contrôle des territoires, Revue des Mondes Musulmans et de la Méditerranée, N. 139, 2016.

22-Bernard (M.), Les Djedar de la Haute-Mina, Revue Africaine, N. 1, 1856.

23--Niox (C.), Algérie: Géographie physique, Imprimerie L. Baudoin, Paris, 1884.

24-Prevost (V.), Abd al-Rahman ibn Rustum al-Farisi: une tentative de biographie du premier imam de Tahart, Der Islam, N. 86, 2011.